كان وقبائلها «6»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان الإرهاب
يرتدي زيّه الأنيق
وينتظر حبيبته في آخر الشارع..
يحمل باقة وردٍ طبيعي
وقارورة عطر باريسي
وقصيدة غزل ملتهبة
ورغبة على وشك الانفجار..
يمرّ الناس بذهول،
وتمرق الحافلات المزدحمة بكائناتها،
وتتقافز القطط الموسمية، وتموء بفضائحها،
ويلتهم المراهقون فتاة الإعلان،
مطلقين شهقاتهم الطازجة..
يهتز كرسي الحديقة الحجري
وتتلصّص امرأة تنتظر موسم قطافها،
من وراء نافذة مظلّلة بالشبهات الحميدة..
ويتنكّر مخبر بملابس عامل بطالة،
ويحوقل شيخ الحارة بغضب دولي،
وتصب امرأة شمطاء لعناتها
على إرهاب وحب هذه الأيام،
وتتشمشم الكلاب بعض التراب المبلّل
بحثاً عن رائحة مثيرة للشغب،
ويردّد ببّغاء المحل التجاري جملته الخادشة
للحياء..
ويختلس مصوّر الجريدة لقطته المطلوبة،
من زاوية حرجة للجميع..
ويتغابى بائع عربة الحلوى اللعين
أسئلة المراهقة العابرة..
ويقود المجنون الكهل مظاهرة من أوهامه،
ويرفع المعاق رجله الثالثة
احتجاجاً على تردّي الأوضاع..
وينهق حمار الحزب
محتجّاً على إزعاج حريته الشخصية،
وتبث الفضائيات أخبارها العجلى
بوجود رغبة مفخّخة،
ويتداعى مجلس الأمن
لمناقشة فرض عقوباته
على جسدٍ متحرّك!!

كان الإرهاب
يمجّ دخان سيجارته
ويطلق لعناته المتلاحقة على هكذا وضع،
ويفكّر بالعودة إلى القُبل الناسفة
وإطلاق آهاته المتراكمة
باتجاه غائبة أفشلت عمليته الانتحارية!!

كان السخط
يضع «ماكيت» شظاياه، ونزهتها المنتظرة،
ويجري بروفاته على حفلته الجديدة، ونشيده
الجديد،
ويغيّر اتجاهات شرفاته، وبوابات قصوره،
ويغرس شتلات أشجار الزينة
استعداداً لحفلة زفافه الميمون.

كان السخط
يتغذّى على قواه الذاتية
ويصر على أن يكون نباتياً..
يفحص نسبة السكّر في دمه
كلما رشق الكناري العابرة
بسربٍ من الأماني الحالمة.

كان السخط
ينفخ عضلاته بعواصف مؤقّتة،
ويدرّب قدميه على السير فوق حبل من مسد،
ويهمس للهوّة بسرّ تفوّقه
ويوقظ الصهيل من سباته
استعداداً لملحمته الرائعة.

كان الحزب
يتفّه نفسه، ويخدّش ملامحه،
يصيبه مسّ الحقيقة، فينكر واقعه،
يتشقلب كالقرود فوق الأشجار العارية،
يبتلع مسكّنات المفاصل
ويتقيّأ عفونة أيديولوجيته
يستنفر عناصره العنصرية
ويدعو جرذانه لقضم نسيج السلام،
يفوح بالمناطقية ويتشدّق في الفضائيات
عن أسسٍ جديدةٍ للوطنية.

كان الحزب
يعمّر «بوري» غنائمه
ويحلّق في نشوته الزائفة،
يجمّع أبناء الغلطات المطبعية
ويدعو إلى فكرٍ جديدٍ منقّحٍ بالسراب،
يفهرس الحياة حسب طقس المزاج..
يرتفع أذان الصلاة
فيصدر فتواه بتأجيل الإخلاص
حتى الساعة الواحدة بعد الطقس المنتظر..
يفتّت صف الجماعة
ويقرض حبل الرحمة، لدواعٍ أمنية!!
يخلع جبّته المؤقّتة
ويعتمر قبّعة صيّاد الغابة!!

كان الحزب
يجمّد إيمانه، ويرقص مع الشيطان
تلبيةً لرغبة الدولار، ونزوة مستهترة..
يغلق دهاليز عقله
ويفتتح «سوبر ماركت» العولمة
ومجمّع الأهواء المتشرّدة..
يوزّع متاهاته على اليتامى
ويحشد رعاع الأفكار الكسيحة..
يؤم جمهرةً من المرايا
ويدعو سنين قحطه وجراده
إلى التهام المواسم اليانعة..
يغلق شوارع الأسئلة
ويفتتح أنفاقه القاتمة..
يتربّص بالضوء، والصرخة الصادقة
ويصوّب ظلامه
تجاه كل حلمٍ يعبر بالوطن!!

كان المكر
يحجز له مقعداً في مقدمة الصفوف،
يتابع فيلم الموسم المثير بمتعةٍ فائقة،
ويصفّق بإعجابٍ كبير
لحبكة الفكرة، وحسّ المخرج المرهف
وعمق الإيحاء، وروعة الأداء وبلاغة المشاهد
المؤثّرة،
وتعبير الموسيقى التصويرية، وتتابع
التشويق..
وفي نهاية المشهد الأخير
ينهض ليحيّي الجمهور العريض
لأنه مَنْ قام بدور البطولة المطلقة.

كان المكر
يدير لعبته الذكية بأعصابٍ فولاذية
وبسمةٍ تنضح بثقةٍ كبيرة

بريشة/ أمل فضل

يقدم إغراءاته الشهية،
وبكرم حاتمي تنهال عطاياه،
وتقبضُ أصابعه على عنق الضحية.

كان المكر
يلتقي بجميع الثعالب،
ويلاعب المخاطر والنظريات المترجمة..
يمدّ يده لمصافحة النهايات
ويضمر للسطر الأخير
كلمة تحمل ميلاد البداية.

كان الزور
يقف أمام سفارات البهتان
ينتظر دوره للإدلاء بالسراب
واستلام مكافأة أتعابه.

كان الزور
يزاحم نفسه، ويجتهد كثيراً
في تفسير المشهد، وتأويل الخرافات
والهتاف لخواء الكلمات.

كان الزور
راوياً عليماً ومتكلّماً
يسرد الأحداث بمنطقية رهيبة،
وبحرفيةٍ يطرب لها مجلس الأمن..
يسلق التواريخ، ويلفّق الوقائع
ويبتكر حكاية غريبة لجماهيرٍ من ورق.

كان الزور
يطلّ من الفضائيات
ويتصدّر الصفحات الأولى من صحف البغاء،
ويستعرض مراحل الفخار.

كان الجنس
يمدّ رعاياه بالمياه المعدنية
ويحثّهم على تحطيم الأرقام القياسية
في أولمبياد المقيل، وماراثون الخيول
وفتح مظاريف مناقصات الليالي الطويلة
يحذّرهم من الاستعانة بالمنشّطات الحزبية/
الحيوية
وقوى الاستعمار الناعمة،
يتمنى عليهم إغلاق أبواب سياراتهم،
وأهوائهم
كي لا تغري العطور الجائلة
بجولةٍ طائشة، تخترق علامات التعجب
والاستفهام؟؟!!

● مقاطع من نص طويل

إصدارات ثقافية

الطعام والمجتمع من منظور ثقافي وبيولوجي

■ أبوظبي . يتصدى كتاب «الطعام والمجتمع في العصر الكلاسيكي القديم» لمؤلفه بيتر غرانسي، من منظور ثقافي وبيولوجي لمعالجة ظاهرة الطعام في السياق التاريخي للعصور القديمة، وربما يتسم هذا النوع من البحث بأهمية خاصة بالنسبة للقارئ العربي خاصة وأن المكتبة العربية تفتقر إلى مثل هذه الدراسات الثقافية، إذ تتجاوز الدراسة أصناف الطعام، وأشكاله، وطرق إعداده، ومحتوى قيمته الغذائية، لتذهب إلى استقراء السياق الاجتماعي والحضاري للأغذية، وأبعاد الطعام الذي يتناوله شعب أو طائفة اجتماعية معينة، إضافة إلى دلالاته الصحية والطبقية والثقافية وما إلى ذلك.

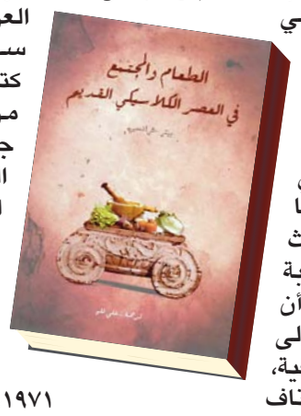

ينصب تركيز المؤلف على مجتمعات البحر المتوسط وجيرانها، إذ يتناول موضوع الطعام وطرق تحضيره وتناوله، والوضع الغذائي لشعوب هذه المجتمعات قديماً وحديثاً، فيتحدث عن النظام الغذائي، والصحة، والمجاعة، وسوء التغذية، وكذلك المعاني والاستخدامات غير المادية للطعام، وطرق تناول الطعام، والطعام كرمز ثقافي، فالطعام أولاً، «ولاحياة بلا طعام».

أصدر الكتاب عن مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث وقام بترجمته علي للو.

يذكر أن مؤلف الكتاب بيتر غرانسي أستاذ تاريخ العصور الكلاسيكية القديمة في جامعة كامبريدج، وهو محرر مشارك في سلسلة كامبريدج للتاريخ القديم، وله العديد من المؤلفات من بينها «المجاعة وإمدادات الغذاء في العالم الإغريقي الروماني: استجابات للمخاطر والأزمات»، و«أفكار حول العبودية من أرسطو إلى أوغسطين» وغيرها، وقد أعرب غرانسي عن سروره بصدور النسخة العربية من الكتاب، قائلا: «إنه لمن دواعي سروري أن أشهد إمكانية أن يكون كتابي عن «الطعام» متاحاً للقراء العرب من خلال مشروع «كلمة»، وإنني أدرك جيداً تلك المساهمة الكبيرة التي قدمها الباحثون من العالم العربي في العصور السابقة في نقل المعارف الكلاسيكية عبر الترجمة إلى العصور اللاحقة والثقافات الأخرى».

مترجم الكتاب علي للو حاصل على البكالوريوس في الأدب الإنجليزي والتربية من الجامعة الأردنية عام ١٩٧١، ترجم العديد من الدراسات والكتب والمقالات والقصائد الشعرية من الإنجليزية إلى العربية، وله العديد من القصائد والمقالات بالعربية، كما عمل رئيساً لقسم الترجمة في صحيفة «الخليج» الإماراتية.

أعداء الحوار

يتحدث الباحث الايطالي، مايكل أنجلو ياكوبوتشي، في مضامين عرضه وشرحه، في الكتاب، عن اللامتسامح كرغبة في إثبات الذات، وعن التسامح باعتباره قاسم التعايش المشترك الأدنى، حيث يقول:«التسامح هو القاسم المشترك الأدنى للتعايش».

وإذا كان التسامح لا يكون تساهلاً أو إرضاء للذات، فلا يجب أن يتم أيضاً الخلط بينه وبين اللامبالاة، وإذا كان قبولنا لشيء ما سببه أنه لا يمسنا من قريب أو بعيد، ولا يخلق لنا مشاكل، ذلك لا يمكن أن نسميه تسامحاً، التسامح لا يعني على الإطلاق الاستغناء عن اليقين الشخصي الراسخ، بل فقط الاستغناء عن ترسيخه بوسائل مغايرة لوسائل الإقناع».

ويتناول المؤلف اللاتسامح الديني، المؤسس على اليقين المطلق. ويبين ياكوبوتشي أن اليهودي لامتسامح مع الآخر بسبب إصابته بحمى الاعتقاد بأنه، دون سائر شعوب الأرض، مختار من الرب، من ثم فإنه مصاب بعقدة الاستعلاء. ويحلل ياكوبوتشي اللاتسامح الديني، الذي يعتبره القتل باسم الرب، إذ يظهر في الحروب المقدسة والقتل الشعائري والانتحار الجماعي واضطهاد المنشقين، ثم يقول:

«إن رحلة بين أعداء الحوار ينبغي أن تبدأ، حتميا، من الدين. أحد أضخم الموضوعات التي تفرض نفسها في كل حديث عن اللاتسامح...».

ويرى المؤلف أن البرهنة على هذه المقولة يمكن أن تعود بنا إلى بدء الخليقة، لنتتبعها في مسيرة التاريخ البشري كله، لكن التقاط بعض الأحداث التي وقعت في العقود الأخيرة، يكفي للدلالة على ذلك.

فالشاب اليهودي المتطرف إيغال عامير الذي قتل رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحاق رابين، برر ما أقدم عليه بقوله: «لقد أمرني الله بذلك، ولست نادما». وكان في هذا يمتثل لنصوص عديدة في التوراة والتلمود، تحض على القتل. ولم تضع الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا أوزارها، إلا قبل سنوات بعد أن أزهقت أرواح مئات الآلاف. ويرجع ياكوبوتشي اللاتسامح الذي تنتجه الممارسات الدينية المجافية لمقاصد الأديان وغاياتها، إلى ثلاثة أسباب، وهي:

تسييس الدين، قيام بعض رجال الدين في المسيحية واليهودية بالحيلولة دون العلاقة المباشرة بين الإنسان وربه، عبر الكهنوت، وقيام أتباع كل دين برفض الأغيار أو أتباع الديانات الأخرى، فاليهودية رفضت المسيحية، والأخيرة ترفض الإسلام والأخير لا يرفض الاثنين، لكنه يعتمد مسارا معينا لهما. ويؤكد ياكابوتشي أن مفاهيم معظم الكتاب الغربيين عن الإسلام مغلوطة، ومليئة بأكاذيب وافتراءات مقصودة أحياناً، وفي أحيان أخرى يكون مردها جهل الغرب بحقيقة الإسلام كدين.

وعلى وجه العموم، يرى الكاتب أن الممارسة المبتسرة والمتجهمة والمنغلقة للدين، هي أكثر العوامل إنتاجا للتعصب، لأنها لاتزال مسيطرة على أغلب السلوكيات البشرية، لاسيما تلك التي تميل إلى التفرقة بين البشر على أساس عقائدي، وفي الوقت ذاته فإن الدين، فضلا عن قوته الكامنة فيه، تحول على مدى آلاف السنين إلى عباءة فضفاضة يتستر بها الكثيرون من الراغبين في ارتكاب أعمال عنيفة. كما يتناول الكاتب اللاتسامح الثقافي، واللاتسامح المذهبي، واللاتسامح السياسي.

ويشرح المؤلف مضمون ودوافع وبنية تكوين التعصب المبني على الثقافة، من خلال إجابته على تساؤلات محورية من قبيل: كيف يمكن قتل شخص ما لمجرد أنه مختلف عنا؟ وما هو الشيء الذي يعطي كلمة ثقافة القوة نفسها التي يتصف بها التعصب الديني؟

ويدور ياكوبوتشي، في هذا السياق، حول اتجاهين رئيسين، أولهما يطرحه عالم الأنثربولوجيا جيمس لوفلوك؛ حيث يرى أن الإنسان سفاح بطبعه، وأن غريزة الصراع ولدت معه وتظل مدفونة في جيناته الوراثية. وثانيهما يبديه جان جاك روسو الذي ينظر إلى الإنسان بوصفه المفترس الطيب، والذي صار عنيفا بالتدريج، بسبب تأثير المجتمع.

كما يوضح ياكوبوتشي انه ينحصر اللاتسامح الثقافي في متقابلات ومفاهيم وتصوات من قبيل الأنا والآخر، والرغبات المتعاظمة في إثبات الذات، والدفاع الأعمى عن الهوية، والتمركز حول الجماعة، والتخوف من الأيديولوجيات المضادة، مثل الهواجس المتبادلة التي كانت بين الشيوعية والرأسمالية، والتي طالما صبت مزيدا من الزيت على نيران صراعات عديدة في العالم. ثم فكرة صدام الحضارات التي صاغها صمويل هنتنغتون؛ ليبرر بها سياسات المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأميركية. وهناك أيضا فكرة خلق العدو أو تفصيله على المقاس، المتوارثة منذ قديم الزمان.

ولا يغفل المؤلف، التطرق إلى اللاتسامح العرقي، الذي أراق دماء غزيرة في تاريخ الإنسانية، بدءا بما جرى للهنود الحمر لدى اكتشاف أميركا في ١٤٩٢، على أيدي الإنجليز والفرنسيين والأسبان والبرتغاليين، وانتهاء بما وقع للمسلمين في البوسنة والهرسك على أيدي الصرب، مرورا بالصراعات العديدة في القارة الأفريقية، مثل ما جرى لليهود على يد النازيين، وما وقع بين الهوتو والتوتسي في رواندا وبورندي، وما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين.

وبخصوص اللاتسامح السياسي، يرى المؤلف أن الأنظمة المستبدة والشمولية، تتجه بعضها إلى التمييز بين المواطنين، على أساس النوع أو العرق أو الدين أو اللغة أو الجهة أو اللون، ويقوم بعضها بممارسة أقصى وأقسى درجات التعصب ضد قطاعات من الجماهير، باستبعادها وتهميشها.

ولا يبدو أن هناك من سبيل لإنهاء اللاتسامح السياسي سوى التعمق في الديمقراطية، على مستوى المفاهيم والتطبيقات؛ لأن الديمقراطية، مثل التسامح، هي وسيلة وحل وسط لتحقيق أقصى خير ممكن لأكبر عدد ممكن من الناس، من زاوية احترامها للمختلفين في الرأي والموقف.

محمد

الكتاب: أعداء الحوار أسباب اللاتسامح ومظاهره
تأليف: مايكل أنجلو ياكوبوتشي
تقديم: أمبرتو إيكو
الناشر: مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٠ م
القطع: المتوسط